دلّت المصادر الإسلامية بآياتها ورواياتها على مكانة الشهيد في الإسلام؛ إذ أكّدت على أنَّ أفضل الموت قتل الشهادة، فهو البرُّ الذي ليس فوقه برّ، لذلك يمكن تصوّر إصرار المؤمنين على تدافعهم نحو الشهادة والاستبسال في ميادينها التي تزيّنت بالدماء، وتكحّلت بالصبر على الأوجاع والآلام في تدارُكها، والهناء بنعيمها الذي يضفي جمالًا على وسام الدنيا، ويزيد من كرامة الآخرة؛ ليكون الشهيد موضع غبطة عند من يجاوره من الأتقياء وأولوا الفضل والمقام.

إنَّ تجربة الشهادة بمراحلها لو تيسّرت للشهداء لطلبوها غير مرّة؛ لما فيها من الكرامة عند الله تعالى، وكلّ مراحل الوصول إلى الشهادة على الرغم من صورتها الخارجية المؤلمة فهي أحلى من الشهد، فإذا طلبها المؤمن موقنًا بالشهادة ودرجتها عند الله تعالى سيجد أنَّ سبيل الوصول لنيلها وإن كان محيطًا بالأحداث والمخاطر سهلٌ ممتع؛ بل لذيذ يعشقه من يعرف قدرة الله على اللطف بعباده.

والتجربة التي عاشها الشهداء الذين رجعوا إلى الدنيا بعد أنْ استأنسوا بلذات الموت في سبيل الشهادة جعلت قلوبهم متعلّقة بتلك اللحظات التي عاشوا فيها نعيم الموت ورائحة الجنة التي تشتاق إلى الأتقياء من عباد الله، وإذا أردنا أنْ نتصوَّر مشاهد المتعة في سبيل الشهادة فلا بأس بأن ننعم في رحلة شهيد عاود الرجوع إلى الدنيا بعد موت؛ إذ يؤكّد بأنَّ الوصول إلى المتعة لحظات ولا تشعر إلّا باللذة وأنت تصير إلى الشهادة، ومن ثمّ تتحرّر من قيود الدنيا وما فيها، فترى ما لا يُرى، وتسمع ما لم تسمعه من قبل، وتشعُر بخفّة الحركة وكأنك تطير بجناحين بين الرياحين والجنان التي لم نكن لنتصوَّرها على الرغم من المشاهد التي نقلتها الآيات والروايات فالذي تعيشه مختلِف عن الذي قرأتَ عنه أو سمعتَ وصفه ورسمه.

والتحرر الذي يعيشه الشهيد في روضته الجديدة قد لا يتصوَّره المتلقّي، فالعالم الآخروي ومنازل الشهداء مختلف عن إدراك البشر، وكل ما حول الشهيد وما يدور بين يديه عجيب غير متصوَّر، يدور في فلك الجنان غير مُثقل بجسم يحجم حركته أو بوزن يحدُّ من متعته؛ إذ الأمنيات تسرع إليه وهو يتدلّل عليها، وما يحبُّ ومن يرغب يكون بين يديه، وكل سعادته متحققة فلا طموح يتأخّر عليه، تجده ملهوفًا بكل جديد ، فلا يشعر بوقت ينقصه متعة رفقة من يُحب، وفي خلود لا يخشى صرفه بعد أن أكرمه ربَّه بالمقام الفضيل والنعيم المقيم.

وبوصوله إلى روضته يذهب عنه الروع والخوف الذي يعيشه أهل الدنيا عند ذكر الموت، فالموت للشهداء كرامة، ولو اتّضح للمؤمن ما في الموت من المتعة والهناء لما أشغل نفسه بما في أيدي الناس من حطام الدنيا، ويقينًا أنَّ في عدم الكشف عن منازل الآخرة بشكل عام يكتنز كثيرًا من الحكمة الإلهية؛ فلو علم الناس ما في الموت من الكرامة والهناء لما عمَّروا شيئًا من الدنيا ولما أشغلوا أنفسهم بما فيها، ولأصبحت قلوبهم متعلّقة بلحظات الوصول إلى الآخرة حيث الكرامة والمقام الجليل، وكلّ ما ذكرته ليس تحليلًا للروايات ولا نقلًا عن أحدهم عاش لحظة ثم عاد؛ بل واقع عشته لمدَّة لحظات بعد موت عاينته بثبات في ساعة من ساعات الجمعة الدامية التي كنا فيها أحياء بلباس الشهداء فأكرمنا الله تعالى بمشاهدة منازل الشهداء ورزقنا لحظات المتعة التي لا تفارق قلوبنا وإن ابتعدنا عنها سنوات، ولعلّ في رجوعنا حكمة أخرى جعلها رب العباد؛ لنشهد على عالم من العوالم التي تنتظرنا ولو بعد حين فكلّ منّا لا بدَّ له من رحلة أبديَّة إلى ربٍّ غفور وكريم، وكلُّ ما بوسعنا هو اننتظار لحظة الرجوع من جديد، فكلّنا شوق إلى لحظة تركناها لا رغبة؛ بل بأمر ربِّ العباد.